الفصل الخامس

خصائص الحضارة الإسلامية

الربانية: إن الخصيصة الأولى من خصائص الحضارة الإسلامية هي: الربانية، وهي كما يقول علماء اللغة[1]– مصدر صناعي منسوب إلى الرب زيدت فيه الألف والنون، على غير قياس ومعناه: الانتساب إلى الرب، أي الله سبحانه وتعالى، ويطلق على الإنسان أنه (رباني) إذا كان وثيق الصلة بالله، عالماً بدينه وكتابه، معلما له. وفي القرآن الكريم: **﴿وَلَكِن كُونُواْ رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ﴾**[2].

١- تُبصرنا هذه الخصيصة بأن هناك حقيقتين أساسيتين[3] ملازمتين للحياة وللنفس البشرية على كل حال وفي كل زمان:

الحقيقة الأولى: إن هذا الإنسان بفطرته لا يمكن أان يستقر في هذا الكون الهائل ذرةً تائهة مفلتة ضائعة. فلابد له من رباط معين بهذا الكون، يضمن له الاستقرار فيه ومعرفة مكانه في هذا الكون الذي يستقر فيه. فلابد له إذن من عقيدة تفسر ما حوله وتفسر له مكانه فيما حوله فهي كما أسلفنا ضرورة فطرية شعورية حتى يعيش على هُدى ويتحرك على بصيرة.

والحقيقة الأخرى: أن هناك تلازماً وثيقاً بين طبيعة التصور الاعتقادي وطبيعة النظام الاجتماعي .. تلازماً لا ينفصل ولا يتعلق بملابسات العصر والبيئة. بل أن هناك ما هو أكثر من التلازم؛ هناك الانبثاق الذاتي فالنظام الاجتماعي هو فرع عن التفسير الشامل لهذا الوجود ولمركز الإنسان فيه ووظيفته[4]، وغاية وجوده الإنساني.. وكل نظام اجتماعي لا يقوم على أساس هذا التفسير، هو نظام مصطنع لن يعيش.. وإذاعاش فترة شقي به (الإنسان)

(١) الخصائص العامة للإسلام، د. يوسف القرضاوي، ص٧.
(٢) سورة آل عمران، الآية ٧٩.
(٣) خصائص التطور الإسلامي ومقوماته، ص٢٥ ومابعدها، بتصرف.
(٤) من كتاب الثقافة الإسلامية، الطبعة الأولى، دولة الكويت، ١٩٨٩م، من ص٦٧-١١٠ بتصرف.

ووقع التصادم بينه وبين الفطرة الإنسانية حتماً.. فهي ضرورة تنظيمية كما أنها ضرورة شعورية[1].

٢- وتبصرنا بأن الرسل عليهم صلوات الله وتسليماته قد بينوا ذلك للناس وعرفوهم بالله تبارك وتعالى تعريفاً صحيحاً، وأوضحوا لهم مركز (الإنسان) في الكون وغاية وجوده، ولكن الانحرافات عن هذا المنهج تحت ضغط الظروف العديدة، كانت قد غشت هذه الضرورة وأضلت البشرية عنها، وأهالت عليها ركاماً هائلاً ثقيلاً.. يصعب رفعه بغير رسالة خاتمة شاملة كاملة عالمية؛ ممتدة ترفع هذا الركام الهائل الثقيل وتبدد هذا الظلام المتراكم الكثيف وتنير هذا التيه المتلاطم المتخبط وتقرر التصور الاعتقادي على أساس من الحق الخالص وتُقيم الحياة الإنسانية على أساس مستقر من ذلك التصور الصحيح. وما كان يمكن أن ينصرف أصحاب التصورات المنحرفة في الأرض كلها وأن ينفكوا عما هم فيه إلا بهذه الرسالة الخاتمة الشاملة الكاملة العالمية الممتدة (الإسلام)، وإلا بهذا الرسول (محمد بن عبد الله) ﷺ: **﴿لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ رَسُولٌ مِّنَ اللَّهِ يَتْلُو صُحُفًا مُّطَهَّرَةً فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ﴾**[2].

ومن ثم كانت عناية الإسلام الكبرى موجهة إلى تحرير أمر العقيدة والتصور الإسلامي للحياة.

٣- وتبصرنا بأن الدين القيم قد جاء وهذا ما يستحق الانتباه والتأمل تصحيحاً كاملاً واضحاً شاملاً لجميع أنواع البلبلة التي وقعت فيها الديانات المنحرفة والفلسفات الخابطة في الظلام.. ورداً على جميع الانحرافات والأخطاء التي وقعت فيها.

٤- الديانات المنحرفة والفلسفات الهابطة سواء ما كان منها قبل الإسلام وما جد بعده كذلك.. فكانت هذه الظاهرة العجيبة إحدى الدلائل على مصدر هذا الدين..

---

(١) انظر تفصيل ذلك في: الإسلام في عصر العلم، د. الغمراوي، ص٩١-٨٨.
(٢) سورة البينة، الآيات ١-٣.

المصدر الذي يحيط بكل ما هجس في خاطر البشرية وكل ما يهجس ثم يتناوله بالتصحيح والتنقيح.

٥- وتبصرنا بأن الذي يراجع ذلك المنهج الرباني في بيان علاقة المخلوق بالخالق وعلاقته بالحياة ودوره المنوط بها وتقرير كلمة الفصل في هذه العلاقة، يدرك عظمة الدور الذي جاءت به هذه العقيدة الربانية لتؤديه في تحرير الضمير البشري وإعتاقه وفي تحرير الفكر البشري وإطلاقه وفي إقامة الحياة).

٦- وتبصرنا بأن التصور الإسلامي هو التصور الوحيد الباقي بأصله الرباني وحقيقته الربانية: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾[1].

٧- وننظر اليوم من وراء القرون إلى هذا الوعد، فنرى فيه المعجزة الشاهدة بربانية هذا الكتاب إلى جانب غيرها من الشواهد الكثير[2]، ونرى أن الأحوال والظروف والملابسات والعوامل التي تقلبت على هذا الكتاب من خلال هذه القرون ما كان يمكن أن تتركه مصوناً لا تتبدل فيه كلمة ولا تحرف فيه جملة لولا أن هنالك قدرة خارجة عن إرادة البشر أكبر من الأحوال والظروف والملابسات والعوامل تحفظ هذا الكتاب من التغيير والتبديل وتصونه من العبث والتحريف.

ولم تزل الأجيال تتوارثه وتتعبد بتلاوته وترتيله وحفظه وكتابته، ولا عجب أن ظل كما كان مكتوباً في المصاحف متلواً بالألسنة محفوظاً في الصدور مكتوباً في السطور منقولاً إلينا بالتواتر اليقين نقلاً حرفياً بنفس طريقة كتابته وبنفس طريقة تلاوته.

وتبصرنا بأن موضع الرسول ﷺ في هذا المنهج الإلهي هو أنه الداعي إلى الله المبين للناس ما اشتبه عليهم من أمره:

﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَنْ نَّشَاء مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى

---

(١) سورة الحجر، الآية ٩.

(٢) انظر: النبأ العظيم، نظرات جديدة في القرآن، ص١٩ومابعدها، وانظر: في ظلال القرآن، ٢١٢٧/٤-٢١٢٩.

صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (٥٢) صِرَاطِ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ أَلَا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الأمُورُ (٥٣)﴾ [١].

﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [٢].

ومن هنا وجبت طاعة الرسول ﷺ[٣]. **﴿من يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللّهَ﴾**[٤] **﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾** [٥].

وتبصرنا بضرورة التلازم بين الخلق والأمر، وتلك حقيقة كبرى أولية من حقائق التصور الإسلامي والثقافة الإسلامية تفيدنا تحديد كلمة الفصل في القضية الأساسية للحاكمية والتشريع والتعبد: **﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ أَلاَ لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ تَبَارَكَ اللّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾** [٦].

هذه السبحات في ملكوت الله عز وجل.. يعرضها القرآن الكريم ليرد البشر الى ربهم الذي خلق هذا الكون وسخره والذي يحكمه بنواميسه ويصرفه بقدره والذي له الخلق والامر والحكم والتشريع والتعبد الخالص: **﴿قُلْ إِنَّ الأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ﴾**[٧] **﴿إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلّهِ أَمَرَ أَلاَّ تَعْبُدُواْ إِلاَّ إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ﴾** [٨]. **﴿اتَّبِعُواْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلاَ تَتَّبِعُواْ مِن دُونِهِ أَوْلِيَاء﴾**[٩]

٨- وتبصرنا بطريقة العصمة من التناقض والتطرف والاختلاف الذي تعانيه المناهج والأنظمة البشرية والمحرفة؛ لأن البشر – بطبيعتهم [١٠]

---

(١) سورة الشورى: الآيتان ٥٢-٥٣.
(٢) سورة النحل: الآية ٤٤.
(٣) سبق تفصيل ذلك في بحث: السنة النبوية.
(٤) سورة النساء: الآية ٨٠.
(٥) سورة الحشر: الأية ٧
(٦) سورة الأعراف: الآية ٥٤.
(٧) سورة آل عمران: الآية ١٥٤.
(٨) سورة يوسف: الآية ٤٠.
(٩) سورة الاعراف: الآية ٣.
(١٠) الخصائص العامة للإسلام، ص٤٦ وما بعدها، بتصرف.

ويختلفون من عصر إلى عصر، بل في العصر الواحد من وقت إلى آخر ومن قطر إلى قطر بل في القطر الواحد من إقليم إلى آخر، وفي الاقليم الواحد من بيئة إلى أخرى وفي الأمة من شعب لآخر وفي الشعب الواحد من فئة إلى أخرى، وفي الفئة الواحدة من فرد لآخر بل في الفرد الواحد من حالة إلى أخرى ومن وقت إلى آخر.

وهذا واضح من موقفها من الروحية والمادية والفردية والجماعية والواقعية والمثالية والثابت والمتطور وغيرها من المتقابلات التي وقف كل مذهب أو نظام عند طرف منها مغفلا الآخر أو جائزاً عليه.

وإذا كانت تلك هي طبيعة العقل البشري في الاختلاف فكيف نتصور براءته من التناقض والاختلاف فيما يضعه من مناهج للحياة سواء أكانت مناهج للتصور والاعتقاد ام للعمل والسلوك ؟!

إن الاختلاف والتناقض لازمة من لوازمه لا ريب وصدق الله العظيم إذ يقول: **﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾** [1].

وظاهرة التناسق المطلق الشامل.. وعدم الاختلاف لا يخطئها من يتدبر هذا القرآن) [2].

٩- وتبصرنا بطريقة البراءة من التحيز والهوى مما لايسلم منه الا المعصوم: **﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ﴾** [3].

وقد قال الله عز وجل لنبيه داود عليه السلام: **﴿يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾**[4]. وسبيل الله هو سبيل الحق والعدل المنزه عن التحيز والجور والانحراف، ومن ثم اعتبر القرآن الكريم ماعدا شريعة الله وحكمه (أهواء) يجب الحذر منها ومن أصحابها.

---

(١) سورة النساء: الآية٨٢.

(٢) انظر: في ظلال القرآن ٢/٧٢٢ -٧٢٣.

(٣) سورة القصص: الآية٥٠.

(٤) سورة ص: الآية ٢٦.

يقول الله تعالى لخاتم رسله محمد ﷺ: **﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَى شَرِيعَةٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾**[١].

﴿وَأَنِ احْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ اللّهُ وَلاَ تَتَّبِعْ أَهْوَاءهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَن بَعْضِ مَا أَنزَلَ اللّهُ إِلَيْكَ﴾[٢].

ويقف الإنسان أمام هذه النصاعة في التعبير وهذا الحسم في التقرير وهذا التوجيه الرباني بكل معطياته.. يقف الإنسان أمام هذا كله ليبصر الطريق المستقيم المبرأ من التحيز والهوى والحكم بما أنزل الله عز وجل[٣].

١٠- وتبصرنا بضرورة الاحترام وسهولة الانقياد والرضا بكل تعاليم المنهج الرباني وأحكامه وتقبله بقبول حسن مع انشراح الصدر وإقناع العقل وطمأنينة القلب فهذا من موجبات الإيمان بالله ورسوله: **﴿فَلاَ وَرَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ حَتَّىَ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لاَ يَجِدُواْ فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا﴾**[٤]. وينشأ عن ذلك: السمع والطاعة في المنشط والمكروه والالتزام والمسارعة إلى التنفيذ مما يطول الحديث فيه.

١١- وتبصرنا بضرورة التحرر من عبودية الإنسان للإنسان ذلك أن العبودية من أنواع وألوان وأن من أشدها خطراً وأبعدها أثراً خضوع الإنسان لإنسان مثله يحل له ماشاء متي شاء ويحرم عليه ماشاء كيف شاء.. والحق كما أسلفنا أن الذي يملك ذلك هو الله وحده ولا غرو إن أنكر القرآن الكريم على أهل الكتاب تنازلهم عن حريتهم التي ولدوا عليها ورضاهم بالعبودية لأحبارهم ورهبانهم الذين أصبحوا يملكون سلطة التشريع لهم أمراً ونهياً وتحليلاً وتحريماً دون أن يكون لأحد حق في اعتراض أو نقد أو مراجعة: **﴿اتَّخَذُواْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُواْ إِلاَّ لِيَعْبُدُواْ إِلَهًا وَاحِدًا لاَّ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾**[٥].

---

(١) سورة الجاثية: الأية ١٨.

(٢) سورة المائدة: الأية٤٩.

(٣) انظر: في ظلال القرآن ٢/٨٩٢- ٩٠٥.

(٤) سورة النساء: الآية ٦٥.

(٥) سورة التوبة: الآية ٣١.

ولما كانت دعوة الإسلام دعوة تحرير شامل للإنسان من العبودية لغير الله وجدنا القرآن الكريم يوجه نداءه إلى أهل الكتاب كافة أن يتحرروا من هذه العبودية لغير الله وأن يفردوا الله وحده بالعبادة والخضوع وذلك في قوله تعالى: **﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْاْ إِلَى كَلَمَةٍ سَوَاء بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللّهَ وَلاَ نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلاَ يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضاً أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللّهِ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُولُواْ اشْهَدُواْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾**(1).

١٢- وتبصرنا بضرورة سلامة النفس من التمزق والضياع والتوزع والانقسام بين مختلف الغايات، وشتى الاتجاهات ولقد اختصر الإسلام غايات الإنسان في غاية واحدة هي إرضاء الله تعالى وركز همومه في هم واحد هو العمل على مايرضيه سبحانه(2). ولا يريح النفس الإنسانية شئ كما يريحها وحدة غاياتها ووجهتها في الحياة فتعرف من أين تبدأ وإلى أين تسير ومع من تسير، ولا يشقي الإنسان شيء مثل تناقض غاياته وتباين اتجاهاته وتضارب نزعاته فهو حيناً يشرق وحيناً يغرب، وتارة يتجه إلى اليمين وطوراً يتجه إلى الشمال ومرة يرضى زيداً فيغضب عمراً ومرة يرضي عمراً فيغضب زيداً ، وهو في كل الحالين حائر بين رضا هذا وغضب ذاك.

ومن الناس من يرضى كل نفس وبين هوى النفوس مدى بعيد ؟! وعقيدة التوحيد قد منحت المسلم يقيناً بأن لا رب إلا الله يخاف ويرجى ولا إله إلا الله يجتنب سخطه ويلتمس رضاه، وبهذا أخرج المسلم كل الأرباب الزائفة من حياته وحطم كل الأصناف المادية والمعنوية من قبله ورضى بالله وحده رباً عليه يتوكل وإليه ينيب، وفي فضله يطمع ومن قوته يستمد وله يتودد وإليه يحتكم وبه يعتصم: **﴿وَمَن يَعْتَصِم بِاللّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾**(3).

فإن هذا المشرك بالله الذي تعددت أربابه وتضاربت وجهاته وقد مثله القرآن الكريم بعبد له أكثر من سيد وهم فيه شركاء متشاكسون غير

---

(١) سورة آل عمران: الآية ٦٤.
(٢) الخصائص العامة للإسلام، ص١٥، بتصرف.
(٣) سورة آل عمران، الآية ١٠١.

متوافقين؛ كل يأمره بضد ما يأمره به الآخر ويريد منه غير ما يريده؛ فهمَّه متفرق وقلبه مشتت؛ يقول تعالى: **﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَاء مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا﴾**[1].

وتأتي العبادات ويأتي كل ما يتصل بالشريعة؛ يأتي لسلامة النفس البشرية من التمزق والضياع حتى تسعد في الحياة.

١٣- وتبصرنا بأن الثقافة الإسلامية كما أسلفنا تسع الحياة كلها، وتجعل المسلم مذعناً للمنهج الرباني في هذه الحياة؛ مدركاً ما لهذا التصور الإسلامي في تفسير شامل للوجود ومعرفة كاملة بحقيقة الإنسان ودوره في هذا الوجود، ومن ثم يعتصم الإنسان من التناقض والتطرف، ويبرأ من التحيز والهوى، ويتحرر من العبودية لغير الله، ويسلم من التمزق والضياع، ويسعد في الآخرة، ولن يكون هذا إلا إذا قامت الثقافة الإسلامية على تلك الحقائق اليقينية الهادية الهادفة.. تلك الحقائق اليقينية المنبثقة من أنها: إلهية المصدر والمنهج، ربانية الغاية والوجهة.. وهكذا كان عطاء هذه الخصيصة الأولى من خصائص الثقافة الإسلامية، عطاءً يؤكد لنا معالم المنهج الرباني ويعطينا قيمه الكثيرة وضرورته للإنسان منفرداً ومجتمعاً، ويبصرنا بغاية الحياة كما يجب أن تكون.. ومن ثم كانت الخصيصة الأولى التي تنبثق منها الخصائص التالية: الثبات والتطور.

الخصيصة الثانية من خصائص الحضارة الاسلامية هي:

الثبات والتطور:

١. تصور لنا (مادة هذا الكون ثابتة الماهية.. لكنها تتحرك فتتخذ أشكالاً دائمة التغير والتحور والتطور)[2]. والذرة ذات نواة ثابتة تدور حولها الالكترونات في مدار ثابت وكل كوكب وكل نجم له مداره يتحرك فيه حول محوره حركة منتظمة محكومة بنظام خاص.

---

(١) سورة الزمر: الآية ٢٩.

(٢) خصائص التصور الإسلامي ومقوماته، ص٨٤ ومابعدها، بتصرف.

﴿وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ﴾[1]، ﴿يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ﴾[2]، ﴿وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ (٣٨) وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّى عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ (٣٩) لَا الشَّمْسُ يَنبَغِي لَهَا أَن تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ (٤٠)﴾[3].

والحديث في هذا يطول[4].

٢. وتصور لنا إنسانية هذا الإنسان المستمدة من كونه مخلوقاً فيه نفخة من روح الله اكتسب بها إنسانيته المتميزة عن سائر طبائع المخلوقات حوله (إنسانية ثابتة .. وقد بدأت الداروينية الحديثة تصحيح الداروينية القديمة فتقرر إن الإنسان مخلوق فريد من الناحية البيولوجية ومن النواحى العقلية والنفسية، كذلك وإن يتميز تميزاً تاماً عن جميع الحيوانات، وبين هذا القول وبين القول بأن إنسانية الإنسان خاصة ثابتة فيه منذ البدء خطوة وإن كان لا يزال يعز على الداروينيين أن يخطوها ! ولكن هذا النسان يمر بأطوار جنينية من النطفة إلى الشيخوخة ويمر بأطوار اجتماعية ذلك خلق الله:

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن سُلَالَةٍ مِّن طِينٍ (١٢) ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ (١٣) ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾[5]، ﴿يَا أَيُّهَا الْإِنسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ (٦) الَّذِيخَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ (٧) فِي أَيِّ صُورَةٍ مَّا شَاء رَكَّبَكَ (٨)﴾[6].

ولكن هذه الأطوار وتلك لا تخرجه من حقيقة إنسانيته الثابتة ونوازعها وطاقاتها واستعداداتها المنبثقة من تلك الحقيقة[7].

---

(١) سورة النمل: الآية٨٨.
(٢) سورة فاطر: الآية ١٣.
(٣) سورة يس: الايات ٣٨ ، ٤٠.
(٤) انظر تفصيل ذلك في: الإسلام في عصر العلم، ص٢٦٦ ومابعدها.
(٥) سورة المؤمنون: الآيات ١٢-١٤.
(٦) سورة الانفطار: الآيات ٦-٨.
(٧) انظر منهج الفن الإسلامي، محمد قطب، ص٤٨-٦٥.

٣. وتصور لنا نزوع الإنسان إلى الحركة لتغيير الواقع الأرضى وتطويره حقيقة ثابتة منبثقة أولاً من الطبيعة الكونية العامة الممثلة في حركة المادة الكونية الأولى وحركة سائر الأجرام في الكون، ومنبثقة ثانياً من فطرة هذا الإنسان وهي مقتضى وظيفته في خلافة الأرض، فهذه الخلافة تقتضي الحركة لتطوير الواقع الأرضي وترقيته.

أما أشكال هذه الحركة فتتنوع وتتغير وتتطور وتصور لنا ضرورة ضبط الحركة البشرية بناء على ما أدركناه من الخصيصة الأولى، فإن قيمة وجود تصور ثابت للمقومات والقيم وهي ضبط الحركة البشرية والتطور والحيوية فلا تمشي شاردة على غير هدى، كما وقع في الحياة العادية المادية البحتة عندما انفلتت من عروة العقيدة.. فانتهت إلى تلك النهاية البائسة ذات البريق الخادع والآلاء الكاذب الذي يخفى في طياته الشقوة والحيرة والنكسة والارتكاس، وقيمته هي وجود الميزان الثابت الذي يرجع إليه الإنسان بكل ما يعرض له من مشاعر وأفكار وتصورات وبكل ما يجد في حياته من ملابسات وظروف وارتباطات؛ فيزنها بهذا الميزان الثابت ليرى قربها أو بعدها من الحق والصواب، ومن ثم يظل دائماً في الدائرة المأمونة ولا يشرد في التيه الذي لا دليل عليه من نجم ثاقب ولا من معالم هادية في الطريق، وقيمته هي وجود (مقوم) للفكر الإنساني منضبط بذاته يمكن أن يضبط الفكر الإنساني فلا يتأرجح مع الشهوات والمؤثرات.

وإلا فكيف تصبح عملية الضبط ممكنة وهي لاترجع إلى ضابط ثابت يمسك بهذا الفكر الدوار ؟ أو بهذا الواقع البشري الدوار ؟ إنها ضرورة من ضرورات صيانة النفس البشرية والحياة البشرية أن تتحرك داخل إطار ثابت، وأن تدور حول محور لا يدور !.. إنها ضرورة لا تظهر كما تظهر اليوم. وقد تركت البشرية هذا الأصل الثابت، وأفلت زمامُها من كل ما يشدها إلى محور وأصبحت أشبه بجرم فلكي خرج من مداره وفارق محوره الذي يدور

عليه في هذا المدار ويوشك أن يصطدم فيدمر نفسه، ويصيب الكون كله بالدمار: ﴿وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ﴾ (١).

٤. وتصور لنا ضرورة نبذ المذاهب الهدامة المعارضة للحقائق الثابتة السابقة التي صورتها لنا هذه الخصيصة من خصائص الثقافة الإسلامية والمذهب الماركسي هو أشد المذاهب الهدامة الوضعية معارضة لحقيقة (الحركة داخل إطار ثابت)؛ لأن الاعتراف بهذه الحقيقة البارزة في طبيعة الكون المادي ذاته كما أسلفنا يفقد المذهب الماركسي ركيزته الأولى التي يقوم عليها ويحطم دعواه في (التقدمية) كما يفهمها (٢).

٥. وتصور لنا الثبات والمرونة في مصادر الإسلام وأحكامه، ولهذه الحقيقة مظاهر ودلائل شتي ويتجلى هذا الثبات في المصادر الأصلية النصية القطعية للتشريع(٣). من كتاب الله تبارك وتعالى وسنة رسول الله ﷺ.

وتتجلى المرونة في (المصادر الاجتهادية) التي اختلف فقهاء الأمة في مدى الاحتجاج بها ما بين موسع ومضيق ومقل ومكثر مثل: الإجماع، والقياس، والاستحسان والمصالح المرسلة وأقوال الصحابة وغير ذلك من مآخذ الاجتهاد وطرائق الاستنباط.

وفي أحكام الشريعة(٤) نجدها تنقسم قسمين: قسم يمثل الثبات والخلود وقسم يمثل المرونة والتطور.

نجد الثبات يتمثل في العقائد الأساسية من الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، وفي الأركان من الشهادتين وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وصوم رمضان وحج البيت، وفي المحرمات اليقينية من السحر وقتل النفس والزنى وأكل الربا وأكل مال اليتيم وقذف المحصنات الغافلات

---

(١) سورة المؤمنون: الآية ٧١.

(٢) انظر: الفكر الإسلامي وصلته بالاستعمار الغربي: د. محمد البهي، ص٣١١ -٣١٥، وكتاب الشيوعية والإنسانية في شريعة الإسلام، عباس محمود العقاد، وسيأتي تفصيل في بحث: الماركسية والدين.

(٣) الخصائص العامة للإسلام، ص٢٠٧ ومابعدها، بتصرف.

(٤) الخصائص العامة للإسلام، ص٢٠٧ مابعدها، بتصرف.

المؤمنات، والتولى يوم الزحف والسرقة والغيبة والنميمة مما يثبت بقطعي القرآن والسنة، وفي أمهات الفضائل من الصدق والأمانة والعفة والصبر والوفاء بالعهد والحياء وغيرها من مكارم الأخلاق التي اعتبرها القرآن والسنة من شعب الإيمان، وفي شرائع الإسلام القطعية في شؤون الزواج والطلاق والميراث والحدود والقصاص ونحوها من نظم الإسلام التي تثبت بنصوص قطعية الثبوت قطعية الدلالة فهذه أمور ثابتة، ونجد في مقابل ذلك القسم الآخر الذي تتمثل فيه المرونة وهو ما يتعلق بجزيئات الأحكام وفروعها العلمية وخصوصاً في مجال السياسة الشرعية. يقول ابن القيم: الأحكام نوعان:

نوع لا يتغير عن حالة واحدة هو عليها بحسب الأزمنة والأمكنة ولا اجتهاد الأئمة؛ كوجوب الواجبات وتحريم المحرمات والحدود المقدرة بالشرع على الجرائم ونحو ذلك، فهذا لا يتطرق إليه تغيير ولا اجتهاد يخالف ما وضع عليه.

والنوع الثاني: ما يتغير بحسب اقتضاء المصلحة له زماناً ومكاناً وحالاً كمقادير التعزيرات وأجناسها وصفاتها فإن الشارع ينوع فيها بحسب المصلحة.

ضرب لذلك عدة أمثلة من سنة النبي ﷺ وسنة خلفائه الراشدين المهديين ثم قال: وهذا باب واسع، اشتبه فيه على كثير من الناس الأحكام الثابتة اللازمة التي لا تتغير بالتعزيرات التابعة للمصالح وجوداً وعدماً [(١)].

٦. وتصور لنا الثبات والمرونة في هدي القرآن الكريم... ويتمثل الثبات في مثل قول الله تعالى في وصف المؤمنين: **﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ﴾**[(٢)]، وفى قوله جل شأنه لرسوله ﷺ: **﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ﴾**[(٣)].

فلا يجوز لحاكم ولا لمجتمع أن يلغي الشورى من حياته السياسية والاجتماعية ولا يحل لسلطان أن يقود الناس رغم أنوفهم إلى ما يكرهون بالتسلط والجبروت.

---

(١) إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان، ابن قيم الجوزية، تحقيق محمد حامد الفقي ١/٣٣٠- ٣٣٣.
(٢) سورة الشورى، الآية ٣٨.
(٣) سورة آل عمران: الآية ١٥٩.

وتتمثل المرونة في عدم تحديد شكل معين للشورى يلتزم به الناس في كل زمان ومكان فيتضرر المجتمع بهذا التقليد الأبدي إذا تغيرت الظروف بتغير البيئات أو الأمصار أو الأحوال.. ويستطيع المؤمنون في كل عصر أن ينفذوا ما أمر الله به من الشورى بالصورة التي تناسب أحوالهم وأوضاعهم، وتلائم موقفهم من التطور دون أي قيد يلزمهم بشكل جامد..

ولو حاولنا الحديث عن الثبات والمرونة في الهدي النبوي وهدي الصحابة والفقه الإسلامي لطال لنا الحديث[1].

٧. وتصور لنا المجتمع الإسلامي متوازناً اجتمعت فيه المتقابلات..[2] وأخذ كل منها مكانه بالعدل.. وهذا هو وضعه بين الثبات والتطور والثبات على الأصول والأهداف والتطور في الفرعيات والأساليب مجتمع ثابت متحرك في آن واحد.

إنه أشبه بالنهر الجارى المتدفق الذي لا يقف عن الحركة والتجدد والجريان ولكن في مجرى مرسوم واتجاه معلوم ولغاية معروفة.

٨. وتصور لنا الحكمة في ذلك لأن المجتمع الإسلامي إذا اتخذ الثبات المطلق مبدأ له في كل الأمور: الدينية والدنيوية.. المعنوية والمادية.. الكلية والجزئية.. الأصلية والفرعية، وثبت على الوسائل ثباته على الأهداف تجمدت الحياة وتحجرت ولم يستفد الناس من الملاحظة والتجربة التي هى أساس العلم الكوني، وهي أمر واقعي حتمي في حياتهم، وهذا ضد قوانين الكون وضد قوانين الفطرة.

كما أنه لو اتخذ المرونة مبدأ له وشعاراً لحياته لتطور على طول الزمن إلى مجتمع بلا قيم ولا ضوابط وأفلت زمامه من التصور الإسلامي، أو يصبح التطور الإسلامي خاضعاً لظروفه وتابعاً لحياته يستقيم إذا استقامت وينحرف إذا انحرفت، والمفروض كما أسلفنا أن يحكم الدين الحياة لا أن تحكمه لمثله ومبادئه لا أن تخضعه لواقعتها وهبوطها.

---

(١) انظر: الخصائص العامة للإسلام، ص٢١٠ ومابعدها.

(٢) المرجع السابق، ص٢٤٢-٢٤٤ بتصرف.

ولولا أن المجتمع المسلم في أفكاره ومفاهيمه وأخلاقه ومثله وتقاليده وشرائعه للتطور المطلق وفقاً لبيئة العصر والأحوال الطارئة؛ لفقد هذا المجتمع وحدته وأصبح في كل قطر مجتمع مغاير للمجتمعات المنتسبة إلى الإسلام في أقطار أخرى، فلا توجد الأمة الواحدة التى أرادها الله؛ وإنما توجد أمم ومجتمعات متناقضة متباينة كما يريد أعداء الإسلام.

٩. وتصور لنا نعمة الله على المجتمع الإسلامي الذي حفظ له الإسلام توازنه بين الثبات والتطور، حين ننظر إلى مجتمعات أخرى كالمجتمعات الغربية اليوم كيف فتحت الباب على مصراعيه للتطور المطلق في كل شئ، فلم يبق في حياتها شئ ثابت تستند إليه وترتكز عليه، فلا عقيدة ولا فضيلة ولا تشريع ولا أي قيمة من القيم العليا التي ورثتها الإنسانية من كتب السماء وتعلمتها على أيدي الهداة من رسل الله، وورثتهم بحق وكانت ثمرة هذا التطرف اضطراب الحياة كلها: من قلق نفسي.. إلى تخبط فكري.. إلى تحلل خلقي.. إلى تفسخ أسري.. إلى تفكك اجتماعي، وقد قابل هذا التطرف تطرف مضاد يتمثل في أولئك الشباب الذين رفضوا تطور مجتمعهم إلى ما صار إليه من مادية؛ فاختاروا حياة غربية شاذة هي حياة (الهيبين) ومن على شاكلتهم والتطرف لا ينتج إلا تطرفاً مثله.

١٠. وتحذرنا من خطر محدق.. حين نجمد ما من شأنه التغير والتطور والحركة فتصاب الحياة بالعقم والجمود وتصبح كالماء الراكد الآسن الذي يجعله الركود مرتعاً للجراثيم والميكروبات، وهذا ما حدث في عصور الانحطاط والشرود عن هدي الإسلام الصحيح، فرأينا كيف توقف الاجتهاد في الفقه وتوقف الإبداع في العلم، وتوقفت الأصالة في الأدب، وتوقف الابتكار وتوقف الافتنان في الحرب، وضربت الحياة بالخمود والتقليد في كل شئ، وأصبح المثل الذي يعبر عن وجهة النظر السائدة (ما ترك الأوائل للأواخر شيئاً) على حين أخذت المجتمعات الأخرى الراكدة، التي طالما تتلمذت على المجتمع الإسلامي والثقافة الإسلامية، تستيقظ وتنهض وتتطور، ثم تنمو وتتقدم ثم تزحف غازية مستعمرة والمسلمون في غمرة ساهون.

١١.وتحذرنا كذلك من خطر محدق آخر وهو أن يخضع المجتمع الإسلامي للتطور والتغير ما من شأنه الثبات والدوام والاستقرار، كما نرى ونسمع في عصرنا الحديث أن فئة من ابناء المسلمين يريدون خلع الأمة من دينها وعزلها من تراثها كله باسم التطور.. !.

يريدون أن يفتحوا الباب للإلحاد في العقيدة والانسلاخ من الشريعة والتحلل من الفضيلة! كل ذلك باسم الصنم الجديد (التطور)، إنهم يريدون أن يطوروا الدين نفسه لكي يلائم ما يريدون استيراده من الشرق أو الغرب من عقائد وأفكار وقيم وموازين وأنظمة وتقاليد ومثل وأخلاق، وما جعل الله الدين إلا ليمسك البشرية أن تتدحرج وتنقلب على عقبها.. لهذا أوجب أن يكون الدين هو الميزان الثابت الذي يحتكم إليه الناس إذا اختلفوا، ويرجعون إليه إذا انحرفوا، أما أن يصبح الدين خاضعاً لمتطلبات الحياة وظروفها يستقيم إذا استقامت ويعوج إذا اعوجت فإنه بذلك يفقد وظيفته في حياة الإنسان.

إن الإصطلاح الحقيقي هو أن نتفهم جيداً ما يجب أن يتطور من شئون الحياة؛ فنبذل جهدنا لتطويره وتحسينه، بمنطق الحكماء الشجعان، لا الأغرار المقلدين.

كما نعرف ما يجب أن يبقي ثابتاً راسياً، من القيم والأفكار والعقائد والأخلاق والآداب والشرائع، التي تزول الجبال الشم ولا هي تزول.. بهذا الموقف الحكيم نواجه التطور ونوجهه فنفوز بالحسنيين ونربح الدنيا ولا نخسر، ونظفر برضوان الله وإعجاب العقلاء من الناس.

الخصيصة الثالثة من خصائص الحضارة الإسلامية هي:

الشمول :

١. تصور لنا شمول العقيدة من أي جانب نظرنا إليها.. باعتبار إنها تفسر كل القضايا الكبرى في هذا الوجود... القضايا التي شغلت الفكر الإنساني ولا تزال تشغله وتلح عليه بالسؤال.. وتتطلب الجواب الحاسم الذي يخرج الإنسان من الضياع والشك والحيرة، وينتشله من متاهات الفلسفات والنحل

المتضاربة قديماً وحديثاً .. قضية الألوهية.. قضية الكون... قضية الإنسان... قضية النبوة .. قضية المصير.

فإذا كانت بعض العقائد تعني بقضية الإنسان دون قضية الألوهية، أو بقضية الألوهية دون قضية النبوة والرسالة، أو بقضية النبوة دون قضية الجزاء الأخروي، فإن عقيدة الإسلام قد عنيت بهذه القضايا كلها، وقالت كلمتها فيها، بشمول واضح[1] .

وإن العقيدة في نظام الإسلام كما يتجلى ذلك في القرآن والسنة النبوية[2] تتصل بجميع أجزاء النظام، فهي الأساس الذي تبني عليه نظرته أو نظامه الخلقي، وهي التي تكون الأساس الفكري لعقلية المسلم، والأساس النفسي لسلوكه، ومنها كذلك تنبثق نظرته إلى الحياة الاقتصادية والحياة السياسية وعلى أساس فلسفتها يبنى نظامها.

وخلاصة الأمر إن مضمون العقيدة له تأثير كبير في الحياة الإسلامية سواء الفردية أم الجماعية. ويلاحظ أنها تتخلل جميع سور القرآن بلا استثناء وأنها تتخلل جميع أحكامه الأخلاقية والتشريعية فلا تستطيع أن تعزل قواعد التنظيم الحقوقي الاجتماعي الموجودة في القرآن عن هذا العنصر الإيماني الذي يتخللها ويحيط بها.

نعم إنه يمكنك أن تجرد هذه القواعد الحقوقية لكنك تكون قد عطلت الجهاز المتحرك عن حركته، وأفقدته روحه وحيويته وقطعت شرايينه وأعصابه، وأصبح قطعة مفصولة عن أصلها للتحليل والتشريح لا آلة فعالة من جهاز كبير يعمل.

على أساس هذه النظرية نضع العقيدة في موضعها من نظام الإسلام وهي اللبنة الأساسية في بنائه، وهي التي تمد ما في أجزائه بالحياة وتحدد اتجاهاتها ومعالمها وتتضمن العقيدة الحقائق الكبرى التي دعا القرآن إلى الإيمان بها، أو

---

(١) انظر: حقائق الإسلام وأباطيل خصومه: عباس محمود العقاد، ص١٠٣، والمرجع السابق، ص١٠٧-١٠٨ ومنهج الفن الإسلامي: ص١٦٤-١٦٧.

(٢) نظام الإسلام: العقيدة والعبادة: محمد المبارك، ص١٨، بتصرف.

التي وجه الإنسان وأرشده إليها، وهي تصور الوجود، وجود الله الخالق ووجود الكون والإنسان، والصلة بين الله والكون والإنسان، وكذلك الحياة وما وراءها من حياة أخرى، أو المصير والجزاء والنبوة التي هي طريق معرفة هذه الحقائق الكبرى.

٢. وتصور لنا شمول العبادة من أي جانب نظرنا إليها: حتى تستوعب الكيان البشري كله، لا يعبد إلا الله بلسانه فحسب أو ببدنه فقط أو بقلبه لا غير أو بعقله مجرداً أو بحواسه وحدها، بل يعبد الله بهذه كلها: بلسانه ذاكراً داعياً تالياً، وببدنه مصلياً صائماً مجاهداً، وبقلبه خائفاً راجياً محباً متوكلاً، وبعقله متفكراً متأملاً، وبحواسه كلها مستعملاً لها في طاعته سبحانه، ومن ثم تتسع للحياة كلها فلا تقتصر على الشعائر التعبدية المعروفة بل تشمل كل حركة وكل عمل ترتقي به الحياة ويسعد الناس[1].

٣. وتصور لنا أثر شمول العقيدة والعبادة في النفس البشرية بما يمنح العقل راحة والقلب طمأنينة والنفس أُنساً والروح سعادة، ومن ثم يكون الاتصال بحقيقة المؤثرات الفاعلة في هذا الوجود كما هي في عالم الحقيقة والواقع[2]، فضلاً عن العنصر الأخلاقي الذي ينشئه هذا التصور ويثبته في القلب البشري وفي الحياة البشرية، ومن ثم تتكون من مجموعة الحقائق التي يتناولها هذا التصور ويثبته في القلب البشري وفي الحياة البشرية، ومن ثم تتكون من مجموعة من الحقائق التي يتناولها هذا التصور في شمول وسعة وتفصيل صورة كاملة شاملة.. ويتكون تفسير جامع مفصل لا يحتاج إلى إضافة من مصدر آخر بل لا يقبل إضافة من مصدر آخر، ومن ثم ينبثق من هذه الحقائق شمول في مخاطبة الكينونة البشرية بكل جوانبها وبكل أشواقها وبكل حاجاتها وبكل اتجاهاتها حتى ترد إلى جهة واحدة تتعامل معها في كل ما يتصل بشئونها وأحوالها.

---

(١) انظر: الخصائص العامة للإسلام، ص١٠٩-١١١.

(٢) خصائص التصور الإسلامي ومقوماته، ص١١٣ ومابعدها، بتصرف.

والكينونة الإنسانية حين تكون في الوضع الذي يطابق (الحقيقة) في كل مجالاتها تكون في أوج قوتها الذاتية، وفي أوج تناسقها كذلك مع (حقيقة) هذا الكون الذي تعيش فيه وتتعامل معه ومع (حقيقة) كل شئ في هذا الوجود مما تؤثر فيه وتتأثر بها، وهذا التناسق هو الذي يتيح لها أن تنشئ أعظم الآثار، وأن تؤدي أعظم الأدوار.

٤. وتصور لنا واقع هذا التصور حياً في دنيا الناس حينما بلغت هذه الحقيقة أوجها في المجموعة المختارة من المسلمين الأوائل، صنع الله بها في الأرض أدواراً عميقة الآثار في كيان الوجود الإنساني، وفي كيان التاريخ الإنساني؛ حتى تسير الأمة على خطى هذه المجموعة المختارة، وهذا أمر لابد كائن بإذن الله.. مهما يكن في الطريق من العراقيل ذلك أن وجود هذه الحقيقة في ذاته ينشئ قوة لا تقاوم؛ لأنها من صميم قوة هذا الكون وفي اتجاه قوة المبدع لهذا الكون، وحتى يصبح النشاط الإنساني حركة واحدة متجهة إلى تحقيق غاية الوجود الإنساني العبادة.. العبادة التي تتمثل فيها عبودية الإنسان لله وحده في كل ما ينهض به من شئون الحياة..

٥. وتصور لنا التجمع النفسي والحركي ميزة كبرى من مميزات التصور الإسلامي؛ بما أنه يتناول بالتفسير كل الحقائق التي تواجه النفس البشرية في الكون كله، ويتناول بالتوجيه كل جوانب النشاط الإنساني، ففي الإسلام وحده يملك الإنسان أن يعيش لدنياه وهو يعيش لآخرته وأن يعمل لله وهو يعمل لمعاشه وأن يحقق كماله الإنساني الذي يطلبه الدين في مزاولة نشاطه اليومي في خلافة الأرض وفي تدبير أمر الرزق، ولا يطلب منه هذا إلا أمراً واحداً هو أن يخلص العبودية لله في الشعائر التعبدية وفي الحركة العملية على سواء، وأن يتوجه إلى الله بكل حركة وكل خلجة وكل عمل وكل نية وكل نشاط وكل اتجاه؛ مع التأكد من أنه لا يتجاوز دائرة الحلال الواسعة التي تشمل كل طيبات الحياة، والله خلق الإنسان بكل طاقته لتنشط كلها وتعمل وتؤدي دورها، ومن خلال عمل هذه الطاقات مجتمعة يحقق الإنسان

غاية وجوده في راحة ويسر وفي طمأنينة وسلام وفي حرية كاملة منشؤها العبودية للّه وحده.

٦. وتصور لنا الدين القيم منهجاً شاملاً متكاملاً.. يشمل الاعتقاد في الضمير والتنظيم في الحياة بدون تعارض بينهما، بل في ترابط وتداخل يعز فصله بحال.. لأنه تجمع تظله الوحدة في كل مايتصل به كما أسلفنا؛ ولأن فصله أيضاً هو تمزيق وإفساد لهذا الدين القيم.

ويطيب لنا أن نذكر ما قاله الأستاذ محمد أسد (ليو بولد فايس) في الفرق بين التصور الإسلامي والتصورات الأخرى في هذا الشأن، وأثر ذلك التصور في الشعور بجدية الحياة وأهمية كل حركة فيها، باعتباره الوسيلة الوحيدة لبلوغ الإنسان أقصي درجات الكمال الإنساني في هذه الحياة الدنيا، في فصل بعنوان (سبيل الإسلام)[1]، (يختلف إدراك العبادة في الإسلام عما هو في دين آخر.. إن العبادة في الإسلام ليست محصورة في أعمال من الخشوع الخالص كالصلاة والصيام مثلاً، ولكنها تتناول كل حياة الإنسان العملية أيضاً، وإذا كانت الغاية من حياتنا على العموم (عبادة اللّه) فليزمنا حينئذ ضرورة أن ننظر إلى هذه الحياة في مجموعة مظاهرها كلها على أنها تبعية أدبية متعددة النواحي، وهكذا يجب أن تأتي أعمالنا كلها حتى تلك التي تظهر تافهة على أنها عبادات وأن نأتيها بوعي، وعلى أن تؤلف جزءاً من ذلك المنهاج الشامل الذي أبدعه اللّه .. تلك حال ينظر إليها الرجل العادي على أنها مثل أعلى بعيد.. ولكن أليس من مقاصد هذا الدين أن تحقق المثل العليا في الوجود الواقع ؟

موقف الإسلام في هذا الصدد لا يحتمل التأويل.. إنه يعلمنا أولاً أن عبادة اللّه الدائمة والممثلة في أعمال الحياة الإنسانية المتعددة؛ جميعها هي معنى الحياة نفسها.. ويعلمنا ثانياً أن بلوغ هذا المقصد يظل مستحيلاً ما دمنا نقسم حياتنا قسمين اثنين: حياتنا الروحية.. وحياتنا المادية، يجب أن تقترن هاتان

---

(١) الإسلام على مفترق الطرق، ص ٢١ –٢٣ بتصرف.

الحياتان في وعينا وفي أعمالنا لتكون (كلاً) واحداً متسقاً .. إن فكرتنا عن وحدانية الله يجب أن تتجلى في سعينا للتوفيق والتوحيد بين المظاهر المختلفة في حياتنا.. هناك نتيجة منطقية لهذا الاتجاه هي فرق آخر بين الإسلام وسائر النظم الدينية المعروفة، ذلك إن الاسلام على أنه تعليم لا يكتفي بأن يأخذ على عاتقه تحديد الصلات المتعلقة بما وراء الطبيعة فيما بين المرء وخالقه فقط، ولكنه يعرض أيضاً بمثل هذا التوكيد على الأقل للصلات الدنيوية بين الفرد وبيئته الاجتماعية.

إن الحياة الدنيا لا ينظر إليها على أنها صدفة عادية فارغة، ولا على أنها طيف خيال للآخرة التي هي آتية لا ريب فيها، من غير أن تكون منطوية على معني ما. ولكن على أنها وحدة إيجابية تامة في نفسها، والحق (وحدة) لا في جوهره فحسب بل في الغاية أيضاً، من أجل ذلك كان خلقه (وحدة) في الغاية بكل تأكيد، وعبادة الله في أوسع معانيها كما شرحنا آنفا تؤلف في الإسلام معنى الحياة الإنسانية.

هذا الإدراك وحده يرينا إمكان بلوغ الإنسان الكمال في إطار حياته الدنيوية الفردية، ومن بين سائر النظم الدينية نرى الإسلام وحده يعلن أن الكمال الفردي ممكن في الحياة الدنيا..

إن الإسلام لا يؤجل هذا الكمال إلى ما بعد إماتة الشهوات (الجسدية)، ولا هو يعدنا بسلسلة متلاحقة الحلقات من تناسخ الأرواح على مراتب متدرجة كما هو الحال في الهندوكية، ولا هو يوافق البوذية التي تقول بأن الكمال والنجاة لا يتمان إلا بعد انعدام النفس الجزئية وانفصام علاقتهما الشعورية من العالم.. كلا، إن الإسلام يؤكد في إعلانه أن الإنسان يستطيع بلوغ الكمال في حياته الدنيا الفردية.. وذلك بأن يستفيد استفادة تامة من وجوه الإمكان الدنيوي في حياته هو.

٧. وتصور لنا عالمية الإسلام، وأنه رسالة الزمن كله وأن الأنبياء جميعاً جاءوا بالإسلام ونادوا بالتوحيد واجتناب الطاغوت: **﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن**

رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾(١)، ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ اعْبُدُواْ اللّهَ وَاجْتَنِبُواْ الطَّاغُوتَ﴾(٢). وكل الأنبياء أعلنوا أنهم مسلمون ودعوا إلى الإسلام. فنوح عليه السلام قال: ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾(٣)، وإبراهيم وإسماعيل عليهما السلام قالا: ﴿رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ﴾(٤). ووصى إبراهيم بنيه ويعقوب عليهما السلام فقالا: ﴿يَا بَنِيَّ إِنَّ اللّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلاَ تَمُوتُنَّ إَلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾(٥)، يوسف عليه السلام دعا ربه فقال: ﴿تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾(٦)، وموسي عليه السلام قال: ﴿يَا قَوْمِ إِن كُنتُمْ آمَنتُم بِاللّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُواْ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ﴾(٧)، وسحرة فرعون حين آمنوا قالوا:

﴿رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ﴾(٨)، وسليمان عليه السلام بعث لبلقيس: ﴿أَلَّا تَعْلُوا عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ﴾(٩)، والحواريون قالوا لعيسي عليه السلام: ﴿آمَنَّا بِاللّهِ وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾(١٠). إنها إذن في جوهرها رسالة كله ورسالة العالم كله؛ إنها الرسالة الشاملة الكاملة العامة الخالدة تخاطب كل الأمم وكل الأجناس وكل الشعوب وكل الطبقات، وخاصة الشعب الذي يزعم أنه وحده شعب الله المختار، وأن الناس جميعاً يجب أن يخضعوا له.

قال تعالى: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾(١١). ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾(١٢).

---

(١) سورة الأنبياء: الآية ٢٥.
(٢) سورة النحل: الآية ٣٦.
(٣) سورة يونس: الآية ٧٢.
(٤) سورة البقرة، الآية ١٢٨.
(٥) سورة البقرة: الآية ١٣٢.
(٦) سورة يوسف: الآية ١٠١.
(٧) سورة يونس: الآية ٨٤.
(٨) سورة الأعراف: الآية ١٢٦.
(٩) سورة النمل: الآية ٣١.
(١٠) سورة آل عمران: الآية ٥٢.
(١١) سورة الفرقان: الآية ١.
(١٢) سورة الأعراف: الآية ١٥٨.

إنها هداية رب الناس لكل الناس[1]، وفي تقرير وحدة الثقافة الإسلامية المترابطة المتناسقة وإقامتها والنهي عن تمزيقها نقرأ: **﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلاَمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾**[2].

وهنا نرى الموكب الطهور ينتظم في القرآن الكريم، ويتلاحق في قطرة كقطرات الماء الزاخرة في البحر الطهور، ونرى الرحمة الشاملة التي آخت بين بني الإنسان، ونحن نبصر عالمية الرسالة وإن الناس في حاجة ماسة إلى دعوة عالمية شاملة كاملة؛ تحترم قيمة الإنسان وتقدر كرامته وتحوطه بسياج اليقين وتطبعه على البر والرحمة؛ في حاجة ماسة إلى دعوة عالمية تبدد ظلام الخوف وتحقيق أسباب السلم وتقيم دعائم الأخوة؛ في حاجة ماسة إلى دعوة عالمية تأخذ بيد الإنسان إلى مدارج الكمال والرقي؛ ليحيا منفعلاً بحقائق الكون وأسرار الوجود، إن ميراث الرسالة العالمية الشاملة الكاملة ملك الناس جميعا على سواء، وحق القيام على تبليغ هذه الدعوة - واجب الدعوة- واجب على كل من تبلغه: **﴿وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لأُنذِرَكُم بِهِ وَمَن بَلَغَ﴾** وإذا افتخرت أمة من الأمم بأن نبياً منها فلتفتخر الأمم كلها بأن خاتم النبيين لها: **﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾**[3].

وفي تقرير وحدة الثقافة الإسلامية المترابطة المتناسقة، وإقامتها والنهي عن تمزيقها نقرأ: **﴿شَرَعَ لَكُم من الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ﴾**[4].

وفي كشف دعاة التفرق والتمزيق وفضح نواياهم الخبيثة الحاقدة وأساليبهم التي تحركها أهواؤهم الفاسدة نقرأ: **﴿إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمْ وَكَانُواْ شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ﴾**[5]، **﴿أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُواْ لَكُمْ وَقَدْ**

---

(١) انظر: كتاب الدعوة الإسلامية دعوة عالمية: محمد الرواي.
(٢) سورة آل عمران: الآية ١٩.
(٣) سورة الأنبياء: الآية ١٠٧.
(٤) سورة الشورى: الآية ١٣.
(٥) سورة الأنعام: الآية ١٥٩.

كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلاَمَ اللّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِن بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾[1].

٨. وتصور لنا شمول الثقافة الإسلامية (لأطوار حياة الإنسان كلها.. أنى اتجه وأنى سار .. تصحبه طفلاً ويافعاً وشاباً وكهلاً وشيخاً، وترسم له في كل هذه المراحل المتعاقبة المنهج الأمثل الذي يسعده.

وهنا نبصر أحكاماً وتعاليم تتعلق بالمولود منذ ساعة ميلاده؛ مثل الآذان في أذنه واختيار اسم حسن له وذبح عقيقة عنه شكرا لله، وغير ذلك مما ضمنه الإمام ابن القيم كتاباً مستقلاً سماه (تحفة المودود في أحكام المولود).

وتبصر أحكاماً تتعلق بأوضاع الرضيع ومدته وفصاله وفطامه، ومن يرضعه وعلى من تكون نفقة المرضع أو أجرتها؛ وخصوصاً عند الطلاق وانفصال أم الرضيع عن أبيه؛ فهنا ينزل القرآن موضحاً مفصلاً كل ذلك فيقول: **﴿وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلاَدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ وَعلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ لاَ تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلاَّ وُسْعَهَا لاَ تُضَآرَّ وَالِدَةٌ بِوَلَدِهَا وَلاَ مَوْلُودٌ لَّهُ بِوَلَدِهِ وَعَلَى الْوَارِثِ مِثْلُ ذَلِكَ فَإِنْ أَرَادَا فِصَالاً عَن تَرَاضٍ مِّنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْهِمَا وَإِنْ أَرَدتُّمْ أَن تَسْتَرْضِعُواْ أَوْلاَدَكُمْ فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُم مَّآ آتَيْتُم بِالْمَعْرُوفِ وَاتَّقُواْ اللّهَ وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾**[2].

وبعد ذلك نجد أحكاماً تتعلق بالإنسان صبياً وشاباً وكهلاً وشيخاً، فلا توجد مرحلة من حياته دون أن يكون للإسلام فيها توجيه وتشريع، وأكثر من ذلك إنها تعني بالإنسان قبل أن يولد وبالإنسان بعد مماته، ولا غرو أن وجدنا في الإسلام أحكاماً تتعلق بالجنين وأخرى ما يشمله كتاب الجنائز.

٩. وتصور لنا شمول الأخلاق في الإسلام لكل جوانب الحياة روحية أو جسمية، دينية أو دنيوية عقلية أو عاطفية فردية أو اجتماعية؛ حيث رسمت المنهج الأمثل للسلوك الرفيع، وأوضحت العلاقة بين الإنسان والكون كما

---

(١) سورة البقرة: الآية ٧٥.

(٢) سورة البقرة: الآية ٢٣٣.

أسلفنا، وقبل ذلك كله وفوقه ما يتعلق بحق الخالق العظيم الذي منه كل النعم وله كل الحمد فهو وحده الحقيق بأن يحمد، أن يعبد ويستعان وأن تطلب منه الهداية إلى الصراط المستقيم، ومن هنا كان على المسلم أن يردد الفاتحة سبع عشرة مرة على الحد الأدنى في كل يوم وليلة، وأكثر من ضعف ذلك إذا هو صلى السنن.

وبهذا يتجلى شمول الأخلاق الإسلامية من حيث موضوعها ومحتواها، ولكن الشمول في الأخلاق الإسلامية يبدو كذلك إذا نظر إلى فلسفتها ومصدر الإلزام بها.

لقد شاء الله للإسلام أن يكون الرسالة العامة الخالدة؛ فهو هداية الله للناس كافة من كل الأمم وكل الطبقات وكل الأفراد وكل الأجيال.

والناس تختلف مواهبهم وطاقاتهم الروحية والعقلية والوجدانية، وتتفاوت مطامحهم وآمالهم ودرجات اهتمامهم، ولهذا جمعت الفكرة الأخلاقية في الإسلام ما فرقته الطوائف الدينية والمذاهب الفلسفية، مثالية وواقعية في نظرتها إلى الأخلاق وتفسيرها لمصدر الإلزام الخلقي، فلم يكن كل ما قالته هذه المذاهب والنظريات باطلاً كما لم يكن كله حقاً، إنما كان عيب كل نظرية في قضية ما نظراً يستوعب كل الأزمنة والأمكنة وكل الأجناس والأشخاص وكل الأحوال والجوانب، فهذا يحتاج إلى إحاطة إله حكيم، فلا غرو إذا كانت نظرة الإسلام جامعة محيطة مستوعبة لأنها ليست نظرية بشر، بل هي وحي من أحاط بكل شئ علماً وأحصى كل شئ عدداً.

لهذا أودع الله في هذا الدين ما يشبع كل نهمة (معتدلة) وما يقنع كل ذي وجهة (معتدلة) ويلائم كل تطور (معتدل)، فمن كان مثالياً ينزع إلى الخير لذات الخير وجد في أخلاقيات الإسلام ما يرضي مثاليته، ومن كان يؤمن بمقياس السعادة وجد في الفكرة الإسلامية ما يحقق سعادته وسعادة المجموع معه، ومن كان يؤمن بمقياس المنفعة فردية أو اجتماعية وجد الإسلام ما يرضي نفعيته، ومن كان يؤمن بالترقي إلى الكمال وجد ما يحقق طلبته.. ومن كان همه التكيف مع المجتمع وجد ما يلائم اجتماعيته حتى الذي يؤمن

بأهمية اللذة الحسية يستطيع أن يجدها فيما أعد الله للمؤمنين في الجنة من نعيم مادي ومتاع حسي.

وبهذا تسمع كل أذن الأنشودة التي تحبها، وتجد كل نفس الأمنية التي تهفو إليها وفق المنهج الرباني الذي يصلح الحياة وغني عن البيان شمول التشريع وشمول الالتزام.

الخصيصة الرابعة من خصائص الحضارة الإسلامية هي الإيجابية:

١- تصور لنا الإيجابية التي ينشئها شمول العقيدة والعبادة في النفس البشرية وفق ما سبق[١]، واستقرار هذه الحقيقة في ضمير الإنسان وفي حياته[٢] يتوقف عليه كل شئ في أمر العقيدة، كما أنه هو الذي يمد الحياة البشرية بكافة المشاعر الأخلاقية بواعثها وموازينها والسلطان القائم عليها.

إن هذه الإيجابية هي مفرق الطريق بين العقيدة الجدية المؤثرة والعقيدة الصورية السلبية، وشمول هذه الإيجابية وتوحدها هو مفرق الطريق كذلك بين التجمع في الكينونة الإنسانية والنشاط الإنساني والتمزق في هذه الكينونة ونشاطها الحيوى[٣]، والقرآن كله معرض هذه (الإيجابية) وهي أساس التصور الإسلامي بعد التوحيد، وهي التي تتجلى فيها حقيقة التوحيد فالتوحيد الإسلامي يمتاز بأنه توحيد الفاعلية والتأثير[٤].

واستقرار هذه الحقيقة في ضمير الجماعة المسلمة الأولى هو الذى أنشأ هذه المجموعة الفريدة الممتازة في تاريخ البشرية كله على الإطلاق وبدون استثناء، فقد عاشوا هذه الحقيقة؛ عاشوها حية في نفوسهم؛ عاشوها ليل نهار وصباح ومساء؛ عاشوها كما يعيشون حياتهم اليومية الواقعية؛ عاشوها مع الله يحسون وجوده في نفوسهم وفي حياتهم أعمق من حس اللمس والرؤية؛ عاشوا في كنفه وفي رعايته؛ وعاشوا في طاعته وفي رقابته؛ والتمسوا قدرته

(١) انظر رقم (٣) في الخصيصة الثالثة (الشمول).
(٢) خصائص التصور الإسلامي ومقوماته، ص١٧٥-١٨٢ بتصرف.
(٣) انظر: حقائق الإسلام وأباطيل خصومه، ص٤٠-٤١.
(٤) انظر: الله، عباس محمود العقاد، ص١٨٨.

تتدخل تدخلاً مباشراً في الصغير والكبير من أمورهم، وتنقل خطاهم وترقبها وترشدهم وتعقب عليهم في الصغيرة وفي الكبيرة، ومن ثم كانوا هذا الذي كانوا من الحساسية والطمأنينة معاً، ومن اليقظة والراحة معاً، ومن الخضوع لله والاستعلاء على أعداء الله معاً، ومن ثم صنع الله بهم في هذه الأرض ما صنع من الصلاح والعمارة ومن الرفعة والطهارة مما لم يسبق ولم يلحق في تاريخ بني الإنسان.

بهذه العقيدة الشاملة الإيجابية[1] غلب المسلمون أقوياء الأرض ثم صمدوا لغلبة الأقوياء عليهم يوم دالت الدول وتبدلت المقادير وذاق المسلمون بأس القوة مغلوبين مدافعين.

وهذه العقيدة الشاملة الإيجابية هي التي أفردت الإسلام بمزية لم تعهد في دين آخر من الأديان الكتابية، فإن تاريخ التحول إلى هذه الأديان لم يسجل قط تحولاً إجماعياً إليها من دين كتابي آخر بمحض الرضى والاقتناع إذ، كان المتحولون إلى المسيحية أو إلى اليهودية قبلها في أول نشأتها أمماً وثنية لا تدين بكتاب ولم تعرف قبل ذلك عقيدة التوحيد أو الإله الخالق المحيط بكل شئ، ولم يحدث قط في أمة من الأمم ذات الحضارة العريقة أنها تركت عقيدتها للتحول إلى دين كتابي غير الإسلام؛ وإنما تفرد الإسلام بهذه المزية دون سائر العقائد الكتابية فتحولت إليه الشعوب فيما بين النهرين وفي أرض الهلال الخصيب وفي مصر وفارس، وتحول إليه أناس من أهل الأندلس وصقلية كما تحول إليه أناس من أهل النوبة الذين عبروا على المسيحية أكثر من مائتي سنة ورغبهم الأقوام والأوطان، ويحقق المصدر الأكبر من العقيدة الدينية فيما امتازت به من عقائد الشرائع وعقائد الأخلاق وآداب الاجتماع. وإبراز هذه المزية (مزية العقيدة الإسلامية) التي أعانت أصحابها على الغلب وعلى الدفاع والصمود هو الذي نستعين به على النظر في مصير الإسلام بين هاتين الحالتين، ونريد بها حالة القوي الغالب وحالة الضعيف الذي لم يسلبه الضعف قوة الصمود للأقوياء إلى أن يحين الحين وتتبدل بين حالتي الغالب

---

(١) حقائق الإسلام وأباطيل خصومه، ص٤٣-٤٤ بتصرف.

والمغلوب حالته التي يرجوها لغده المأمول، ولئن كانت حالة الصمود حسنى الحالتين في مواقف الضعف مع شمول العقيدة وبقائها صالحة للنفس الإنسانية في جملتها وللعالم الإنساني في جملته ليكونن المصير في الغد المأمول أكرم ما يكون مع هذه القوة وهذا الشمول.

٢- وتصور لنا الإيجابية في علاقة المؤمن بالله ورسوله وعقيدته والمؤمنين مما يطول الحديث فيه، وحسبنا أن نبصر الحب مظلة تظل المجتمع الإسلامي حب الله ورسوله وحب الإيمان وحب المؤمنين.

يروى الشيخان عن أنس ﷺ ان رسول الله ﷺ قال: [**ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان: أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله وأن يكره أن يعود في الكفر كما يكره أن يقذف في النار**].

وفي رواية: [**لايؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من والده وولده والناس أجمعين**].

وفي أخرى: [**لايؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه**][1].

ونبصر الترابط والتآلف والتعاون بين المؤمن وأخيه المؤمن.

يروي أحمد بسند صحيح عن سهل بن سعد ﷺ أن رسول الله ﷺ قال:

[**المؤمن من أهل الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد، يألم المؤمن لأهل الإيمان كما يألم الجسد لما في الرأس**].

ويروي الدارقطني في الإفراد والضياء بسندٍ حسنٍ عن جابر ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: [**المؤمن يألفُ ويُؤلفُ ولا خير فيمن لا يألف ولا يؤلف وخير الناس انفعهم للناس**][2].

ومن ثم نبصر المسلمين كرجل واحد، فيما يرويه مسلم عن النعمان بن بشير ﷺ أن رسول الله ﷺ قال:

---

(١) اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان، محمد فؤاد عبد الباقي، ص٩-١٠.

(٢) الجامع الصغير، ٢/٥٧٠.

[المسلمون كرجل واحد إن اشتكى عينه اشتكى كله وإن اشتكى رأسه اشتكى كله] (١).

ونبصر المؤمن مرآة المؤمن وأخاً له وفياً متعاوناً معه فيما يرويه البخاري في الأدب وأبو داود بسند صحيح عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: **[المؤمن مرآة المؤمن، والمؤمن أخو المؤمن، يكف عنه ضيعته ويحوطه من ورائه]**(٢).

والحديث عن الحب الإيجابي بهذه الصورة ذو شجون وشؤون يطول الحديث فيها، وتغمرنا نشوة يعجز البيان عن تصويرها ونحن في هذه الرحاب، إن الذي يستطيع أن يحب هذا الحب الإيجابي صنف واحد من بني الإنسان؛ إنه الصنف الذي خالطت قلبه بشاشة الإيمان، والإيمان وحده ينبوع الحب الإيجابي المصفى الخالد، والمؤمن وحده هو الذي يستطيع أن يحب هذا الحب الكبير، إن الحب معنى أخض من الرضا، وأعمق أثراً. فقد يرضى الإنسان بالشئ أو يرضى عن الشخص، ولا يفضى ذلك إلى حب وتعلق القلب به فإن ذلك شأن الحب لا شأن الرضا، الحب هو روح الوجود وأكسير القلوب وصمام الأمان لبني الإنسان، إذا كان قانون الجاذبية يمسك الأرض والكواكب والأفلاك أن تصطدم فتتساقط أو تحترق وتزول، فقانون الحب هو الذي يمسك العلاقات الإنسانية أن تتصادم فتحترق وتستحيل إلى دماء، هذا هو الحب الذي عرف الناس قيمته في القديم والحديث(٣)، هذا هو الحب في صورته الإيجابية.

٣- وتصور لنا الإيجابية في مواجهة المنكر، ومخالطة الناس والصبر على أذاهم، وهذا تصحيح لما ترامى ويترامي إلى وهم البعض أن مواجهة المنكر ومخالطة الناس والصبر على أذاهم أمور لا قبل لهم بها ولا عليهم ما داموا كما يقولون صالحين في أنفسهم منعزلين عن الناس، وأنهم بهذا يستندون إلى قول الحق تبارك وتعالى: **﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لاَ يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ إِلَى اللّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾**(٤).

---

(١) صحيح مسلم، ٢٠٠٠/٤
(٢) صحيح الجامع الصغير، ٦/٦.
(٣) انظر: رجال الفكر والدعوة في الإسلام، الندوى، ص٢٨٦ ومابعدها، والإيمان والحياة: د. القرضاوى، ص١٧٠-١٩١.
(٤) سورة المائدة: الآية١٠٥.

وهذا فهم خاطئ استند إليه هؤلاء الضعاف ليعفيهم من تبعة الجهاد ومشاقه، ويريحهم من عنته وبلائه! ولقد صحح الخليفة الأول هذا الفهم الخاطئ فيما رواه ابن ماجه والترمزى وصححه عن أبي بكر رضي الله عنه قال: يا أيها الناس! إنكم تقرءون هذه الآية: (يا أيها الذين آمنوا عليكم انفسكم لا يضركم من ضل إذا اهتديتم) فإني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول:

[إن الناس إذا رأوا منكرا فلم يغيروه يوشك أن يعمهم الله بعقابه] وفي رواية أبي داود: **(إذا رأوا الظالم فلم يأخذوا على يديه أوشك أن يعمهم الله بعقاب)** وفي أخرى: **(ما من قوم يعمل فيهم المعاصي ثم يقدرون على أن يغيروا ثم لا يغيرون الا يوشك أن يعمهم الله بعقاب)**(١).

وهكذا صحح الخليفة الأول رضى الله عنه هذا الفهم الخاطئ عند هؤلاء الذين يضعون هذا الآية على غير موضعها وما أكثرهم في كل زمان ومكان، وقد(٢) فاتهم أن الإيجابية المتفاعلة الآمرة بالمعروف والناهية عن المنكر، من سمات التصور الإسلامي الصحيح يروي أحمد ومسلم وأصحاب السنن عن أبي سعيد رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: **[من رآى منكم منكراً فليغيره بيده فإن لم يستطع فبلسانه فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الايمان]** (٣).

ويروي أحمد والبخاري في الأدب والترمذي وابن ماجه بسند صحيح عن ابن عمر رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: **[المؤمن الذي يخالط الناس ويصبر على أذاهم أفضل من المؤمن الذي لا يخالط الناس ولا يصبر على أذاهم]** (٤).

٤- وتصور لنا الإيجابية في العلاقات الدولية التي تجعل حالة السلم هي الحالة الثابتة التي (لا يغيرها إلا وقوع الاعتداء الحربي وضرورة رده أو خوف(٥) الخيانة بعد المعاهدة وهي تهديد بالاعتداء أو الوقوف بالقوة في وجه حرية

---

(١) مشكاة المصابيح: الخطيب التبريزي، ١٤٢٢/٣ وسنده صحيح.
(٢) انظر: تفسير ابن كثير، ١٠٩/٢، والفتح الرباني لترتيب مسند الإمام أحمد بن حنبل الشيباني مع مختصر شرحه بلوغ الأماني من أسرار الفتح الرباني، أحمد عبد الرحمن البنا الشهير بالساعاتي، ١٣٤/١٨.
(٣) الجامع الصغير، ٥٢٠/٢.
(٤) المرجع السابق، ٥٧١.
(٥) في ظلال القرآن، ٢٥٤٥/٦ بتصرف.

الدعوة وحرية الاعتقاد وهو كذلك اعتداء، وفيما عدا هذا فالسلم والمودة والعدل للناس أجمعين: **﴿لا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ❖إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَى إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾**.

إن هذه الإيجابية هي القاعدة التي تنبثق من التصور الإسلامي؛ الذي يجعل القضية بين المؤمنين ومخالفيهم هي قضية هذه العقيدة دون غيرها، ويجعل القيمة التي يقاتل دونها المؤمن هي قضية هذه العقيدة وحدها، فليس بينهم وبين الناس ما يتخاصمون عليه ويتقاتلون إلا حرية الدعوة وحرية الاعتقاد وتحقيق منهج الله في الأرض وإعلاء كلمة الله، إن المسلم يعيش في هذه الأرض لعقيدته ويجعلها قضيته مع نفسه ومع الناس من حوله، فلا خصومة على مصلحة ولا جهاد في عصبية، أي عصبية من جنس أو أرض أو عشيرة أو نسب؛ إنما الجهاد لتكون كلمة الله هي العليا ولتكون عقيدته هي المنهج المطبق في الحياة. والإسلام مع هذا لا يعد القتال غاية لذاته ولا يأذن به لغاية أكبر من المهادنة والموادعة.. إن السلام هو غاية الإسلام كما تقرر في آيات أخرى كثيرة في القرآن ولكنه السلام الذي لا اعتداء فيه ولا ظلم ولا بغي ولا عدوان) [1].

٥- وتصور لنا معالم الطريق إلى تحقيق هذه الإيجابية في واقع الحياة عسى أن تدب الحياة من جديد في جسد هذه الأمة انطلاقاً من أن التصور الإسلامي ليس تصوراً سلبياً يعيش في عالم الضمير[2] قانعاً بوجوده هناك في صورة مثالية نظرية أو روحانية، إنما هو (تصميم) لواقع مطلوب إنشاؤه وفق هذا التصميم، وطالما هذا الواقع لم يوجد فلا قيمة لذلك التصميم في ذاته إلا باعتباره حافزاً لا يهدأ لتحقيق ذاته. هذا ما يثيره التصور الإسلامي فى شعور المسلم.. ومن ثم يجد دائماً هاتفاً مُلحاً في أعماقه يهيب به إلى تحقيق هذا

---

(١) المرجع السابق، ٢٤٢٦/٤ انظر كتاب: السلام العالمي والإسلام، سيد قطب.

(٢) خصائص التصور الإسلامي ومقوماته، ص١٨٣، بتصرف.

التصور في دنيا الواقع، ويؤرقه حتى يهب للعمل ويفرغ طاقته الإيمانية كلها في هذا العمل الإيجابي البناء، وفي إنشاء واقع تتمثل فيه هذه العقيدة في حياة الناس.. وحيثما ذكر الإيمان في القرآن أو ذكر المؤمنون ذكر العمل الذي هو الترجمة الواقعية للإيمان(١)، فليس الأمر مجرد مشاعر إنما هو مشاعر تفرغ في حركة لإنشاء واقع وفق (التصميم) الإسلامي للحياة أو وفق التصور الإسلامي للحياة.

﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُوْلَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾(٢).

ومن ثم يستشعر المسلم أن وجوده على الأرض ليس فلتة عابرة إنما(٣) هو قدر مقدور مرسوم له طريقه ووجهته وغاية وجوده، وأن وجوده على الأرض يقتضيه حركة وعملاً إيجابياً في ذات نفسه، وفي الآخرين من حوله وفي هذه الأرض التي هو مستخلف فيها، وفي هذا الكون المحسوب حسابه في تصميمه وأنه لا يبلغ شكر نعمة الله عليه بالوجود ونعمة الله عليه بالإيمان، ولا يطمع في النجاة من حساب الله وعذابه إلا بأن يؤدي دوره الإيجابي في خلافة الأرض، وفي شرع الله ومنهجه وتطبيق هذا المنهج في حياته وفي حياة غيره والجهاد لدفع الفساد عن هذه الأرض، والفساد في الأرض إنما ينشأ عن عدم تطبيق منهج الله في عالم الواقع ودنيا الناس وحياة الجماعات، وأن وزر هذا الفساد حين يقع واقع على عاتقه هو ما لم يؤد الشهادة لله في نفسه وفي غيره وفي الأرض كلها من حوله، وتصور المسلم للأمر على هذا النحو لا جرم يرفع من قيمته في نظر نفسه، كما يرفع اهتمامه بقدر ما يشعره بضخامة التبعة الملقاة على عاتقه وبثقل العبء الذي يحمل ويكدح فيه حتى يلاقي الله ربه وقد أدى الأمانة وأدي الشهادة ووفي بحق النعمة فيما يملك من الطاقة وطمع في النجاة من عذاب الله وزحزح عن النار.

---

(١) انظر: العمل والعمل بين الإسلام والنظم الوضعية المعاصرة، ص٢٥ ومابعدها.
(٢) سورة الحجرات: الآية ١٥.
(٣) خصائص التصور الإسلامي ومقوماته، ص١٨٩، بتصرف.

الخصيصة الخامسة من خصائص الحضارة الإسلامية هي:

التوازن:

١- تصور لنا (التوازن) بين الجانب الذي تتلقاه الكينونة الإنسانية لتدركه وتسلم به[١] وينتهي عملها فيه عند التسليم[٢]، والجانب الذي تتلقاه لتدركه وتبحث حججه وبراهينه وتحاول معرفة علله وغاياته وتفكر في مقتضاياته العملية، وتطبقها في حياتها الواقعية والفطرة الإنسانية تستريح لهذا ولهذا؛ لأن كليهما يلبي فيها جانباً أصيلاً مودعاً فيها من غيب لا تحيط به الأفهام ولا تراه الأبصار، ومكشوف تجول فيه العقول وتتدبره القلوب، ومن مجال أوسع من إدراكها تستشعر إزاء جلال الخالق الكبير.. ومجال يعمل فيه إدراكها وتستشعر إزاءه قيمة الإنسان في الكون وكرامته وتتوازن الكينونة الإنسانية بهذا وذاك في يقين وخضوع وإيمان وخشوع.

٢- وتصور لنا التوازن في الكون كله[٣]، الليل والنهار والظلام والنور والحرارة والبرودة والماء واليابس، والمقابلات كلها بقدر وميزان وحساب لا يطغي شئ منها على مقابله، ولا يخرج من حده المقدر له، وكذلك الشمس والقمر والنجوم والمجموعات الكونية السابحة في فضاء الكون الفسيح كل منها يسبح في مداره، ويدور في فلكه دون أن يصدم غيره أو يخرج عن دائرته:

﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾[٤].

﴿مَّا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِن تَفَاوُتٍ﴾[٥].

﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا﴾[٦]. **﴿الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ﴾**[٧]

﴿صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ﴾[١]

---

(١) المرجع السابق، ص١٣٤ -١٣٧ بتصرف وانظر مقدمة المنقذ من الضلال، الغزالي، تحقيق د. عبد الحليم محمود.
(٢) انظر: في ظلال القرآن، ١/٣٩ – ٤٠.
(٣) الخصائص العامة للإسلام، ص١٢٠.
(٤) سورة القمر: الآية ٤٩.
(٥) سورة الملك: الآية ٣.
(٦) سورة الفرقان: الأية ٢.
(٧) سورة السجدة: الآية ٧.
(١) سورة النمل: الآية ٨٨.

إن تركيب هذا الكون وتركيب كل شئ فيه يظهر التدقيق الذى يعجز البشر عن تتبع مظاهره. في جانب واحد من جوانب هذا الكون الكبير. وكلما تقدم العلم البشري فكشف عن بعض جوانب التناسق العجيب في قوانين الكون ونسبه ومفرداته اتسع تصور البشر لهذه الحقيقة يقول (كريسي موريسون) رئيس أكاديمية العلوم بنيويورك في كتابه (الإنسان لا يقوم وحده) والذي عرف بعد الترجمة باسم (العلم يدعو إلى الإيمان)[1].

ومما يدعو إلى الدهشة أن يكون تنظيم الطبيعة على هذا الشكل بالغاً هذه الدقة الفائقة؛ لأنه لو كانت قشرة الأرض اسمك مما هي عليه بمقدر بضعة أقدام لامتص أكسيد الكربون الأوكسجين، ولما أمكن وجود حياة النبات ولو كان الهواء أرفع كثيراً مما هو عليه فإن بعض الشهب التي تحترق الآن بالملايين في الهواء الخارجي كانت تضرب جميع أجزاء الكرة الأرضية وهي تسير بسرعة تتراوح بين ستة أميال أو أربعين ميلاً في الثانية. وكان في إمكانها أن تشعل كل شئ قابل للاحتراق ولو كانت تسير ببطء رصاصة البندقية لارتطمت كلها بالأرض ولكانت العاقبة مروعة، أما الإنسان فإن اصطدامه بشهاب ضئيل يسير بسرعة تفوق سرعة الرصاصة تسعين مرة كان يمزقه إرباً إرباً من مجرد حرارة مروره. إن الهواء سميك بالقدر اللازم بالضبط لمرور الأشعة ذات التأثير الكيميائى التي يحتاج إليها الزرع، والتي تقتل الجراثيم وتنتج الفيتامينات دون أن تضر بالإنسان إلا إذا عرض نفسه لها مدة أطول من اللازم، وعلى الرغم من الانبعاثات الغازية من الأرض طول الدهر ومعظمها سام، فإن الهواء باق دون تلويث في الواقع، ودون تغير في نسبته المتوازنة اللازمة لوجود الإنسان وعجلة الموازنة العظيمة هى تلك الكتلة الفسيحة من الماء أي المحيط الذي استمدت منه الحياة والغذاء والمطر والمناخ المعتدل والنبات وأخيراً الإنسان نفسه[1].

---

(١) ترجمة محمود صالح الفكي.

(١) انظر: في ظلال القرآن ٥/٢٥٤٨ – ٢٥٥٠، وانظر التعادلية: توفيق الحكيم، ص١٠-١١، وانظر: الخصائص العامة للإسلام، ص١٢٠-١٢١، وانظر: الله والعلم الحديث، عبد الرازق نوفل، ص ٤٦- ١٠٢.

٣- وتصور لنا التوازن بين الروحية والمادية بين الدين والدنيا فقد وجدت في التاريخ جماعات ووجد أفراد[١] كل همهم إشباع الجانب المادي في الإنسان وعمارة الجانب المادي في الحياة دون التفات إلى الجوانب الأخرى: **﴿وَقَالُواْ إِنْ هِيَ إِلاَّ حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾**[٢].

وهذه النزعة المغالية في المادية وفي قيمة الدنيا، جديرة بأن تولد الترف والطغيان والتكالب على متاع الحياة والغرور والاستكبار عند النعمة واليأس والقنوط عند الشدة.

نرى ذلك واضحاً فيما قصه الله علينا من مصارع الأفراد والأقوام الذين عاشوا للدنيا وحدها، ولم يلقوا للدين بالاً ولا للآخرة حساباً ولا للروح مكاناً.

فهذا صاحب الجنتين يفخر على صاحبه منتفخاً بثروته ومختالاً بجنته قائلا: **﴿أَنَا أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا (٣٤) وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا (٣٥) وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً﴾**[٣].

فارسل الله على جنته حسباناً من السماء فأصبحت صعيداً زلقاً وأصبح ماؤها غوراً، وهذا قارون الذي أتاه الله من الكنوز ما إن مفاتيحه لتنوء بالعصبة أولي القوة بغى على قومه واغتر بماله ونسب الفضل فيه إلى نفسه: قال تعالى: **﴿قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِندِي﴾**[٤]، فخسف الله به وبداره الأرض وهذا فرعون الذي قال: **﴿الَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾**[١]. فكانت النهاية في البحر، وغير هؤلاء من الأمم التي اترفت في الحياة الدنيا فقتلها الترف ودمرها التحلل وحقت عليها كلمة العذاب وحرمت نصر الله وعونه: **﴿حَتَّى إِذَا أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِم بِالْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَجْأَرُونَ**

---

(١) الخصائص العامة للإسلام، ص١٣٢-١٣٦، بتصرف.
(٢) سورة الأنعام: الآية ٢٩.
(٣) سورة الكهف: الآيات ٣٤-٣٦.
(٤) سورة القصص: الآية ٧٨.
(١) سورة الزخرف: الآية ٥١.

(٦٤) لَا تَجْأَرُوا الْيَوْمَ إِنَّكُم مِّنَّا لَا تُنصَرُونَ (٦٥) قَدْ كَانَتْ آيَاتِي تُتْلَى عَلَيْكُمْ فَكُنتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ تَنكِصُونَ﴾ [١].

﴿وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا آخَرِينَ (١١) فَلَمَّا أَحَسُّوا بَأْسَنَا إِذَا هُم مِّنْهَا يَرْكُضُونَ (١٢) لَا تَرْكُضُوا وَارْجِعُوا إِلَى مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَاكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْأَلُونَ﴾ [٢]

وفي الطرف المقابل لهذه النزعة وأصحابها وجد آخرون من الأفراد والجماعات؛ نظروا إلى الدنيا نظرة احتقار وعداوة فحرموا على أنفسهم طيبات الحياة وزينتها وعطلوا قواهم من عمارتها والإسهام في تنميتها واكتشاف ما اودع الله فيها، عرف ذلك في برهمية الهند ومانوية فارس وبدا ذلك بوضوح وجلاء في نظام الرهبانية الذي ابتدعه النصارى فعزلوا جماهير غفيرة عن الحياة والتمتع بها والانتاج فيها.

وأصبح الشائع في مفهوم الناس عن الدين والتدين الحق هو الانقطاع عن العالم والتفرغ للعبادة، وأن المتدين الحق هو الذي يتبطل فلا يعمل، ويتقشف فلا يتمتع، ويتبتل فلا يتزوج، ويتعبد فلا يفتر، ليله قائم ونهاره صائم، يده من الدنيا صفر وحظه من الحياة خبز الشعير ولبس المرقع واتخاذ الفلوات سكناً.

وبين هاتين النزعتين قام الإسلام يدعوا إلى التوازن والاعتدال، فصحح مفهوم الناس عن حقيقة الإنسان وعن حقيقة الحياة كما أسلفنا، وبين إن الحياة ليست سجناً عوقب الإنسان به، ولا عبئاً فرض عليه حمله إنما هي نعمة يجب أن تشكر ورسالة يجب أن تؤدي ومزرعة لحياة أخرى هي خير وأبقى، يجب ألا تشغل عنها ولا تحيف عليها، والقرآن الكريم يدعو إلى العمل في الحياة والضرب في الأرض والسعي في مناكبها والاستمتاع بطيباتها بجوار الحث على الاستعداد للآخرة والتزود ليوم الحساب، وذلك بالإيمان والعبادة وحسن الصلة بالله ودوام ذكره الذي تطمئن به القلوب.

---

(١) سورة المؤمنون: الآيات ٦٤-٦٦.

(٢) سورة الأنبياء: الآيات ١١-١٣.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تُحَرِّمُواْ طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللّهُ لَكُمْ وَلاَ تَعْتَدُواْ إِنَّ اللّهَ لاَ يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ (٨٧) وَكُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللّهُ حَلاَلاً طَيِّبًا وَاتَّقُواْ اللّهَ الَّذِيَ أَنتُم بِهِ مُؤْمِنُونَ﴾ (١).

﴿وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾ (٢).

ولو سأل عن الليل والنهار لكان الجواب:

﴿وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا (١٠) وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا﴾ (٣)

ولو سأل عن الأرض وما فيها لكان الجواب:

﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ﴾ (٤).

﴿فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ (٥).

ومن دعاء النبي ﷺ نقرأ ما رواه مسلم عن ابي هريرة رضي الله عنه قال: كان رسول الله ﷺ يقول: **[اللهم أصلح لى ديني الذي هو عصمة أمري وأصلح لي دنياي التي فيها معاشي وأصلح آخرتى التي فيها معادي واجعل الحياة زيادة لي في كل خير واجعل الموت راحة لي من كل شر].**

وفي روايه أخرى له والترمذى وابن ماجه عن ابن مسعود رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: **[اللهم اني اسالك الهدي والتقى والعفاف والغني].**

وفي رواية لمسلم عن أنس رضي الله عنه قال: كان رسول الله ﷺ يقول: (١) ﴿رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ (٢).

---

(١) سورة المائدة: الآيات ٨٧– ٨٨.
(٢) سورة القصص : آلآية ٧٧.
(٣) سورة النبأ: الآيات ١٠–١١.
(٤) سورة الملك: الآية ١٥.
(٥) سورة الجمعة: الآية ١٠.
(١) صحيح مسلم، ٢٠٧١/٤، وانظر: فتح الباري، ٤٤٧/١٣، طبعة الحلبي.
(٢) سورة البقرة: الآية ٢٠١.

وأخيراً نقرأ ما رواه البخاري عن أنس ﷺ قال: جاء ثلاثة رهط إلى بيوت أزواج النبي ﷺ، يسألون عن عبادة النبي ﷺ فلما أخبروا كأنهم تقالوها، فقالوا: وأين نحن من النبي ﷺ ؟ قد غفر له ما تقدم من ذنب وما تأخر.

فقال أحدهم: أما أنا فأنا أصلي الليل أبدا، وقال آخر: أنا أصوم الدهر ولا أفطر، وقال آخر: أنا أعتزل النساء فلا أتزوج أبداً فجاء إليهم رسول الله ﷺ فقال: (**أنتم الذين قلتم كذا وكذا؟ أما والله إني لأخشاكم لله وأتقاكم له، لكني أصوم وأفطر وأصلي وأرقد وأتزوج النساء فمن رغب عن سنتي فليس مني**)[1].

وأخيرا نقرأ قول الحق تبارك وتعالى:

﴿يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ (٣١) قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (٣٢)﴾[2].

٤- وهكذا يكون التوازن بين الفردية والجماعية في صورة متزنة رائعة تتوازن فيها مصلحة الفرد ومصلحة الجماعة وتتكأفا فيها الحقوق والواجبات وتتوزع فيها المغانم والتبعات بالقسطاط المستقيم[3]، لقد تخبطت الفلسفات والمذاهب من قديم في قضية الفرد والمجتمع والعلاقة بينهما، وقد جاء الدين المنزل من عند الله ليقيم التوازن في الحياة والقسط بين الناس كما قرر القرآن الكريم: **﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾**[1].

والرسالة في جوهرها واحدة[2]، ولكن اتباعها سرعان ما حرفوا وبدلوا كلمات الله ففقدت بذلك وظيفتها في الحياة، حين فقدت مزيتها الأولى التي

---

(١) فتح البارى، ١١/٤-٥.
(٢) سورة الأعراف: الآيات ٣١-٣٢.
(٣) الخصائص العامة للإسلام، ص١٢٩ -١٤٤ بتصرف.
(١) سورة الحديد: الآية ٢٥.
(٢) انظر: في ظلال القرآن ٦/٣٤٩٤

تحدثنا عنها في مقدمة هذه الخصائص وهي (الربانية)، لهذا لم نجد قبل الإسلام حلاً لهذه المشكلة فقد كان اليهود الذين تفرقوا في الأرض يؤيدون الفردية بتفكيرهم وسلوكهم القائم على الأنانية: **﴿وَأَخْذِهِمُ الرِّبَا وَقَدْ نُهُواْ عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ﴾**[1].

وجاءت المسيحية تهتم بنجاة الفرد قبل كل شئ تاركه شأن المجتمع لقيصر أو على الأقل هذا ما يفهم من ظاهر ما يحكيه الإنجيل عن المسيح عليه السلام حين قال: **أعطِ ما لقيصر لقيصر وما لله لله!**

وإذا طوينا كتاب التاريخ تأملنا صفحات الواقع فماذا نرى؟ نرى عالمنا يقوم فيه صراع ضخم بين المذهب الفردي والمذهب الجماعي، نرى الرأسمالية تقوم على تقديس الفردية واعتبار الفرد هو المحور الأساسي فهي تدلّله بإعطاء حرية التملك وحرية القول وحرية التصرف وحرية التمتع، ولو أدت هذه الحريات إلى إضرار نفسه وإضرار غيره ما دام يستخدم (حريته الشخصية)، ومن ثم فهو يمتلك المال بالاحتكار والحيل والربا، وينفقه في اللهو والخمر والفجور، ويمسكه عن الفقراء والمساكين والمعوزين، ولا سلطان لأحد عليه لأنه (هو حر).

والمذاهب الاشتراكية وبخاصة المتطرفة منها كالماركسية تقوم على الحط من قيمة الفرد والتقليل من حريته والإكثار من واجباته واعتبار المجتمع هو الغاية، وهو الأصل وما الأفراد إلا أجزاء أو تروس صغيرة في تلك (الآلة) الجبارة التي هي المجتمع، والمجتمع في الحقيقة هو الدولة والدولة في الحقيقة هي الحزب الحاكم وإن شئت قلت: هي اللجنة العليا للحزب، وربما كانت هي زعيم الحزب فحسب هي الدكتاتور!.

إن الفرد ليس له حق التملك إلا في بعض الأمتعة والمنقولات، وليس له حق المعارضة ولا حق التوجيه لسياسة بلده أو أمته، وإذا حدثته نفسه بالنقد العلني أو الخفي فإن السجون والمنافي وحبال المشانق له بالمرصاد!.

---

(١) سورة النساء: الآية ١٦١.

ذلك هو شأن فلسفات البشر ومذاهب البشر، والجهالات التي وقع فيها البشر وموقفها من الفردية والجماعية، وهنا نتساءل: ما هو موقف الإسلام؟

لسنا في حاجة إلى أن نشير إلى إيجابية خصائص الثقافة الإسلامية التي عرضنا لها من قبل في التوازن بين الفردية والجماعية، ولا إلى تقرير حرمة الدم وحرمة العرض وحرمة المال وحرمة البيت وحرية الاعتقاد وحرية النقد وحرية الفكر وفق المنهج القويم الذي لا يتعارض مع الأصول الثابتة، فهذه حقائق يطول فيها الحديث، وحسبنا أن نشير إلى تقرير المسؤولية الفردية وتأكيدها في قول الحق جل شأنه:

﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ﴾[1]، **﴿لاَ يُكَلِّفُ اللّهُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ﴾**[2]، **﴿وَلاَ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾**[3].

وهذه المسؤولية تطبق على الإنسان في الدنيا والآخرة فهو في الحالتين لا يحمل وزر غيره[4]، بينما نرى التناقض واضحاً فيما يعرف بعقيدة الخطيئة الموروثة[5].

ومع هذه الحقوق والحريات التي منحها الإسلام للفرد[6] فقد فرض على المجتمع واجبات تكافئها، وقيد هذه الحقوق والحريات الفردية بأن تكون في حدود مصلحة الجماعية وألا تكون فيها مضرة للغير وليس للفرد أن يستخدم حقه فيما يؤذي الجماعة ويضرها كما قال رسول الله ﷺ فيما رواه أحمد وغيره بسند حسن عن ابن عباس – رضى الله عنهما: **[لا ضرر ولا ضرار]**[1]، أي لا يضر الإنسان نفسه ولا يضار غيره، كما أن حق الفرد إذا تعارض مع حقوق الجماعة فإن الجماعة أولى بالتقديم.

---

(١) سورة المدثر: الآية ٣٨.
(٢) سورة البقرة: الآية ٢٨٦.
(٣) سورة الإسراء: الآية ١٥.
(٤) نظر: دستور الأخلاق في القرآن، د. محمد عبد الله دراز، ترجمة د. عبد الصبور شاهين، ومراجعة د. السيد محمد بدوي، ص١٣٥-٢٤٢.
(٥) انظر: الإسلام على مفترق الطريق، ص٢٨، حقائق الإسلام وأباطيل خصومه، ص٧٧، لمحات في الثقافة الإسلامية، ص٦٩.
(٦) الخصائص العامة للإسلام، ص١٤٤-١٤٨، بتصرف.
(١) انظر: الأحاديث الصحيحة، رقم ٢٥٠.

الخصيصة السادسة من خصائص الحضارة الإسلامية هي:

الصبغة الأخلاقية:

١- تصور لنا الأخلاق سمة بارزة من سمات الإسلام الذي جاء لينتقل بالبشر خطوات فسيحات إلى حياة مشرقة بالفضائل والآداب، والذي اعتبر المراحل المؤدية إلى هذا الهدف النبيل من صميم رسالته، كما أنه عد الإخلال بهذه الوسائل خروجاً عليه، وابتعاداً عنه فليست الأخلاق من السمات التي يمكن الاستغناء عنها بل هي من أصول الحياة التي يرتضيها الدين القيم ويحترم ذويها.

وحسبنا أن نبصر دائرة البعثة المحمدية ممثلة في مكارم الأخلاق وصالحها يروي البخاري في الأدب المفرد وابن سعد والحاكم وغيرهم عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول اللّه صلى الله عليه وسلم قال: **[إنما بعثت لاتمم مكارم الاخلاق]**، وفي رواية: **(صالح الأخلاق)** [1].

٢- وتصور لنا الأخلاق سمة بارزة من سمات المسلم في الدنيا والآخرة، يروي الطبراني في الصغير بسند حسن عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: **[أكمل المؤمنين إيماناً أحسنهم أخلاقاً الموطؤون أكنافا الذين يألفون ويؤلفون ولا خير فيمن لا يألف ولا يؤلف]** [1].

ويروي الترمزي وغيره بسند حسن عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول اللّه صلى الله عليه وسلم قال: **(أكمل المؤمنين إيماناً أحسنهم خلقاً، وخياركم خيارهم لنسائهم)**.

ويروي الترمزي وغيره بسند حسن عن جابر رضي الله عنه أن رسول اللّه صلى الله عليه وسلم قال: **[إن من أحبكم إليَّ وأقربكم مني مجلساً يوم القيامة أحاسنكم أخلاقا وإن أبغضكم إليَّ وأبعدكم مني مجلساً يوم القيامة الثرثارون والمتشدقون**

---

(١) الأدب المفرد، رقم ٢٧٣، وابن سعد في الطبقات، ١٩٢/١، والحاكم ٦١٣/٢، وأحمد ٣١٨/٢، وابن عساكر في تاريخ دمشق، ٢/٢٦٧/٦، وابن وهب في الجامع، ص٧٥، عن زيد بن أسلم مرفوعاً به، ومالك، ٨/٦٠٤/٢ بلاغاً، وقال ابن عبد البر: هو حديث متصل من وجوه صحاح عن أبي هريرة وغيره.

(١) الطبراني في معجمه الصغير، ص١٢٥، ومن طريقه ابو نعيم في اخبار أصبهان، ٦٧/٢.

والمتفيقهون، قالوا: قد علمنا الثرثارون والمتشدقون فما المتفيقهون قال: المتكبرون](1).

٣- وتصور لنا مكانة الأخلاق ونحن نقرأ وصف الحق تبارك وتعالى لخاتم النبيين وسيد الخلق أجمعين رسول الله ﷺ: **﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾** (2)، ويعجز القلم ويعجز كل تصور عن وصف قيمة هذه الكلمة العظيمة من رب(3) الوجود وهي شهادة من الله في ميزان الله لخير خلق الله ومدلول الخلق العظيم هو ما عند الله مما لا يبلغ إلى إدراك مداه أحد من العالمين، ودلالة هذه الكلمة العظيمة على عظمة محمد ﷺ تبرز من نواحي شتي: تبرز من كونها كلمة من الله الكبير المتعال يسجلها ضمير الكون، لمن جانب إطاقة محمد ﷺ لتلقيها وهو يعلم من ربه هذه الكلمة ؟ ما عظمته؟ ما دلالة كلماته ؟ ما مداها ؟ ما صداها ؟ ويعلم من هو إلى جانب هذه العظمة المطلقة التي يدرك هو منها ما لا يدركه أحد من العالمين، والناظر في هذه العقيدة كالناظر في سيرة رسولها.

يجد العنصر الأخلاقي بارزاً أصيلاً فيها تقوم عليه أصولها التشريعية وأصولها التهذيبية على السواء الدعوة الكبرى في هذه العقيدة إلى الطهارة والنظافة والأمانة والعدل والرحمة والبر وحفظ العهد ومطابقة القول للفعل ومطابقتها معاً للنية والضمير، والنهي عن الجور والظلم والخداع والغش وأكل أموال الناس بالباطل والاعتداء على الحرمات، والإعراض وإشاعة الفاحشة بأيه صورة من الصور والتشريعات في هذه العقيدة لحماية هذه الأسس وصيانة العنصر الأخلاقي في الشعور والسلوك وفي أعماق الضمير وفي واقع المجتمع وفي العلاقات الفردية والجماعية والدولية على السواء. إن هذه الأخلاق ليست فضائل مفردة إنما هي منهج متكامل تتعاون فيه التربية والتهذيبية مع الشرائع التنظيمية وتقوم عليه فكرة الحياة كلها واتجاهاتها جميعاً.

---

(١) الترمزي، ٣٦٣/١، والخطيب في التاريخ ٦٣/٤.

(٢) سورة القلم: الآية ٤.

(٣) في ظلال القرآن، ٣٦/٥٦ -٣٦٥٧ بتصرف.

٤- وتصور لنا الصبغة الأخلاقية صبغة الحق التي شاء الحق تبارك وتعالى لها أن تكون آخر رسالاته إلى البشر، لتقوم عليها وحدة إنسانية واسعة الآفاق لا تعصب فيها ولا حقد ولا أجناس ولا ألوان كما أسلفنا في حديثنا عن عالمية الرسالة، وصدق اللّه العظيم:

﴿صِبْغَةَ اللّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَابِدونَ﴾ [١]

الخصيصة السابعة من خصائص الحضارة الإسلامية هي:

الواقعية:

١. تصور لنا مراعاة واقع الكون[٢] من هو حيث حقيقة واقعية ووجود مشاهد، ولكنه يدل على حقيقة أكبر منه ووجود أسبق وأبقي من وجوده، وجود اللّه الذي خلق كل شئ فقدره تقديراً كما سبق في حديثنا عن الربانية، وكما سيأتي فى هذا الحديث عن العقيدة الإسلامية ومصادرها، ومراعاة واقع الحياة من حيث هو مرحلة حافلة تنتهي بالموت وتمهد لحياة أخرى توفى فيها كل نفس ما كسبت، ومراعاة واقع الإنسان من حيث هو مخلوق فيه العنصر الروحي والعنصر الأرضي، كما سبق في حديثنا عن الربانية أيضاً، ومن حيث هو ذكر أو أنثي لكل منهما تكونه ونزعاته ووظيفته، ومن حيث هو عضو في مجتمع لا يستطيع أن يعيش وحده ولا أن يفني تماماً في المجتمع، من هنا لم يهمل الإسلام في توجيهاته الفكرية وفي تعليماته الأخلاقية وفي تشريعاته القانونية واقع الكون وواقع الحياة وواقع الإنسان بكل ظروفه وملابساته؛ لأن الذي يشرع للإنسان ويوجهه ويعلمه كما سبق في حديثنا عن ضرورة التلازم بين الخلق والأمر هو الذي خلق الإنسان فهو أعلم بما يصلحه وما يفسده وما يرقي به إلى درجة الكمال وما يهبط به إلى أسفل سافلين.

---

(١) سورة البقرة: الآية ١٣٨.

(٢) الخصائص العام للإسلام، ص١٤٩-١٥١، بتصرف.